الترحيلة

انتفض حشد الرجال لمرأى قافلة سيارات النقل الكبيرة تتهادى على الطريق الموازي لقناة السويس في البر الغربي, وصناديقها الخشبية تترنح يمنة ويسرة. كان أول ما وصلهم منها هو الأزيز والصرير, وقد دقا في رؤوسهم كأجراس مبهجة يوم عيد؛ فانتفضوا واشرأبت أعناقهم الغليظة تحملق فيها, وتتحد عليها, فيما تشنجت أيديهم على الفئوس والمقاطف وأدوات شتى, وفي نفس كل منهم تلاعبت زبالة ترقب وقلق, وتوجس من خيبة لن يحتملوها..

ومجاورا لسائق سيارة المقدمة, جلس الرجل ذو الندبة, وعبثا حاولت العيون المبحلقة استشراف المخبوء من وجهه المطبوع دوما بالصمت..

وكان العجوز المنتصب الآن, المشرئب بكل قامته- أكثرهم اختلافا.. ربما العجوز تجسيد حي لغد مخيف قد ينتظر كل واحد منهم, وقت أن تخبو الصحة وتتملص العافية, وتظل الأفواه العالقة في الرقاب مفتوحة تحتاج لمن يطعمها؛ ولهذا كانوا يشفقون عليه, في حين أنهم في حقيقة الأمر يشفقون على أنفسهم..

الرجل ذو الندبة يُكبره ويُجله, وكلاهما عمره قد جاوز الستين.. علاقة ما تجمع العجوز بذي الندبة, حب ما..

الرجل ذو الندبة, لم يأت بسياراته منذ أسبوع بالتمام؛ لتمر الأيام عليهم معسرة دون الكفاف.. يتجمعون عقب الفجر, ويغادرون مع الغروب, تظللهم سماء مكفهرة بشظف العيش؛ بطونهم خاوية, ونفوسهم تحوم بها غربان الهم..

"طوبى لمن يأكل لقمته بساعده وعرق جبينه يوما بيوم.."

جملة العجوز الشهيرة, يحمسهم بها, ويستفز طاقتهم كلما استبد بهم الوهن..

قال العجوز لذي الندبة في المرة الأخيرة, وبعينيه يلمع وجع:

"ضاق العيش.."

وسبحت عيناه مع تموجات القناة حيث سيناء, تخنقها كثبان الرمال في البر الشرقي تنادي للغوث, وهزه في كتفه, وعوى:

"ألا تذكر؟!.."

غامت عينا ذو الندبة, تنبش الماضي..

"كانوا بالكاد عبروا القناة.. أزيز رصاصات العدو في كل مكان.. صخب طائراته.. فرقعات دانات مدافعه.. الدماء الطاهرة تروي الرمال.. الأنفاس.. العرق.. السواعد الفتية.."

وعوى العجوز ثانية, وفي عينيه تربعت خيبة:

"لم كان العرق؟!.. الدماء.. الحرب التي خضنا؟!.."

انتكس رأس ذو الندبة في الأرض, وقال العجوز فيما يشير لرأسه المشيب:

"شارفنا النهاية, وما زالت الغادة تنتظر.."

"أحدهم يصوب على الجبهة (الخالية حينها من الندبة)؛ لأن بيده كان العلم يرفرف بفرح.. لم يكن يدري.. ولم يكن يعبأ.. كان مزهوا برجاله؛ قائد الكتيبة.. وها النصر يكلل أعالي الجبال, نداهة تنادي, تفتح يديها على مرمى البصر.."

هدر العجوز:

"وكما عبرنا بالسلاح.. نعبر اليوم بالفأس.. ننتشر.. نُعمر تلك البقاع المهجورة.. نحررها من كثبان الرمال الجاثمة على صدرها كما اليهود.. ومن الأفاعي التي تسكن المخابئ والجحور.. نمد البلاد التي ضاقت بنا بأرض جديدة, غير تلك التي هتكتها الخرسانة, وبورها الجشع.."

نكت ذو الندبة الأرض, وتصلبت عيناه إلى حيث كان النصر منتظرا يوما..

"وفي اللحظة الأخيرة يدفعه جندي, أسمر شداد.. لينجو قائد الكتيبة بندبة, جاءت بجوار حاجبه الأيسر.."

السيارات الآن ترج الطريق.. سيعبر بالرجال من أجل نصر جديد.. يراه مجددا على قمم الجبال, يعانق السماء, ينتظر من يقطفه, يهديه جلبابا من السندس الأخضر لسيناء, مصانع وشركات.. يريد أن يزف للعجوز الخبر.. لجندي كتيبته.. العجوز أنقذه مرتين؛ يوم الندبة.. وهذه المرة؛ ليتحول من مجرد مقاول ثري, يخرق الأرض الزراعية بالخرسانة المسلحة, إلى باحث عن النصر..